

د. إبراهيم عوض

سورة الرحمن

دراسة بلاغية وأسلوبية



مقدمة

سورة « الرحمن » من الشُّور المختلف حول كونها مكية أو مدنية . وقد أثبت من خلال تحليل مضمونها وأسلوبها أنها تنتمي إلى القرآن المكي لا المدني . وهي كذلك تتضمن وصفاً لبعض النعيم الأخرى ، مما يتخذه المستشرقون والمبشرون أداةً للطعن في الإسلام ونبيه والادعاء بأنه هو صاحب القرآن . وقد ردت الدراسة على هذه الادعاءات وكشفت عوارها وسخفها ومجافاتها للحقيقة . كما يزعم بلاشير ، في ترجمته للقرآن إلى الفرنسية ، أن الآيات التي تبدأ بالآية الثانية والستين إلى آخر السورة هي نفسها الآيات من ٤٦ إلى ٦١ ولكن بعد أن أعيدت صياغتها ، أي أن هاتين المجموعتين من الآيات هما نص واحد بصيغتين مختلفتين ، ولذلك فهو يقترح حذف المجموعة الأولى ، التي يزعم أنها هي النص القديم قبل تعديله . وقد بينت من خلال تحليل الآيات المذكورة من الناحية الإعرابية والأسلوبية والمضمونية أن ما قاله هذا المستشرق هو تشكيك متهافت لا يستند إلى أي أساس .

وفوق هذا فقد عقدت فصلاً تناولت فيه المسائل البلاغية التي تضمنتها السورة ، مثل التثنية التي تسودها ، وفاصلة الـ « ... ان » التي تنتهي بها كل آياتها تقريباً ، ودلالة اختيار هذه الفاصلة ، وغير ذلك . والله ولي التوفيق .



سورة « الرحمن » : مكية أم مدنية ؟

فى المصحف أن سورة « الرحمن » مدنية . وعلى هذا النحو أيضا يصنفها محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله . وفى الكتب التى ترتب سور القرآن تُذكر هذه السورة عادة على أنها من المدنى . أما فى تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » فنجد أن هناك من يقول بمكيته ومن يقول بأنها مدنية . ويختار القرطبي الرأى الأول لما جاء فى الروايات من أن عبدالله بن مسعود تَحَدَى بها قريشا ، إذ قرأها بصوت عالٍ فى الكعبة فقاموا إليه وضربوه ، وأنه عليه السلام قرأها على الجن فى نخلة ، وقراءته القرآن على الجن إنما كانت فى مكة على ما هو معروف (١) .

وهناك رواية أخرى مؤادها أن الآيات الأولى من هذه السورة نزلت ردًا على أهل مكة ، الذين استنكروا إطلاق القرآن الكريم اسم « الرحمن » على الله سبحانه فقالوا : وما الرحمن ؟ (٢) فإذا صحت هذه الرواية كانت دليلاً إضافياً على مكية السورة .

وثمة دليل آخر من موضوعات السورة ، إذ هى تتحدث عن خلق الإنسان من الطين ، والجن من النار . وهو موضوع مكي . كذلك فإنها تتكلم بالتفصيل عن يوم القيامة وما سوف يحدث فيه من انشقاق السماء وإلقاء المجرمين فى جهنم وبئس المصير ، والهور العين والنعم الأخرى التى ادخرها الله للمتقين فى جنته . وذلك من سمات القرآن الذى نزل بمكة .

وهذا علاوة على أن السورة تخلو من الموضوعات التشريعية والحديث عن الجهاد واليهود والمنافقين وغير ذلك من موضوعات القرآن المدنى .

فإذا حللناها أسلوبيًا وجدنا لفظة « الرحمن » (التي تشكل أول آية فيها) لم تأت وحدها دون « الرحيم » في آية سورة مدنية (٣) . وقد وردت في القرآن منفردة خمسين مرة وثيقًا .

- ما اقترن لفظا « الشمس » و « القمر » في القرآن إلا في السور المكية ، ما عدا سورة « الحج » ، التي بعضها مكى وبعضها مدنى . والآية الثامنة عشرة منها التي وقع فيها ذلك يغلب على الظن أنها من الجزء المكى . وقد اقترن هذان اللفظان في قريب من عشرين موضعا في القرآن الكريم .

- كلمة « حُضبان » في المرتين الأخيرين اللتين وردت فيهما خارج سورة « الرحمن » (الآية / ٥) جاءت في سورتين مكيتين هما سورة « الأنعام » وسورة « الكهف » . بل إن كون الشمس والقمر حُضبانًا قد تكرر أيضا في سورة « الأنعام » (المكية كما بينت لتوى) .

- كلمة « الشَّجَر » الموجودة في الآية السادسة من سورتنا هي من الكلمات المكية (٤) . وقد تكررت في القرآن خمس مرات ، إلى جانب سورة « الرحمن » . بل إن مادة « ش ج ر » من المواد التي تستأثر السور المكية بالغالبية العظمى من اشتقاقاتها ، إذ بينما لم ترد في المدنى إلا فى أربعة مواضع نجدها قد وردت فى النصوص المكية فى اثنين وعشرين موضعا ، عدا « الرحمن » .

- ومثل مادة « ش ج ر » فى ذلك مادة « وزن » ، التى ترددت مشتقاتها فى القرآن الكريم فى ثلاثة وعشرين موضعا : للمدنى منها موضع واحد هو الآية الخامسة والعشرون من سورة « الحديد » . والباقى كله ، فيما عدا آية « الرحمن » ، هو من المكى .

- ومثلها أيضا في هذا مادة « ط غ و » ، التي ورد منها الفعل « تَطَعَوْا » في الآية الثامنة من سورتنا ، إذ قد تكررت في القرآن تسعا وثلاثين مرة معظمها في المكي . وما ورد في المدني فهو منحصر في اشتقاق « الطغيان » « والطاغوت » . أما الأفعال وأسماء الفاعلين فكلها مكية .

- وكذلك مادة « خ س ر » ، التي جاء منها في سورتنا (الآية / ٩٩) قوله تعالى : « ولا تُخْسِرُوا (الميزان) » ، فإن أغلبية اشتقاقاتها جاءت في سور مكية . ثم إن الحديث عن إخسار الميزان قد تكرر مرة أخرى في سورة « المطفون » (الآية / ٣) ، وهي سورة مكية .

- كلمة « آلاء » ، التي تكررت في السورة كثيرا ابتداء من الآية / ١٣ ، قد تكررت في القرآن خارج « الرحمن » ثلاث مرات ، وذلك في الأعراف / ٦٩ ، ٧٤ ، والنجم / ٥٥ . وكلها نصوص مكية . بل إن عبارة « فبأى آلاء ربك ... ؟ » قد وردت مرة أخرى في القرآن ، وكان ذلك في « النجم » (المكية كما أشرنا) .

- كلمة « حَبْ » ، التي أتت في الآية ١٢ من سورتنا ، هي من الكلمات التي لا وجود لها خارج نطاق السور المكية . وقد تكررت في القرآن ست مرات ، غير سورة « الرحمن » .

- كلمة « العَصْف » وردت مرة أخرى وحيدة في الآية ١٩ من سورة « الفيل » ، وهي سورة مكية . بل إن مشتقات مادة « ع ص ف » كلها ليس لها أى وجود في غير السور المكية . وقد وردت في ستة مواضع غير آية « الرحمن » .

- تتحدث الآيتان / ١٤ ، ١٥ عن خلق الإنسان من طين ، والجن من نار . وهذا الموضوع لم يُطْرَق في أى من السور المدنية . بل إن كلمتي « الجن »

و « الجائ » لم تأتيا إلا فى النصوص المكية . لا ، بل يشمل ذلك مادة « ج ن ن » كلها ، ماعدا كلمة « جنة » .

- فى الآية ١٧ من سورتنا نجد قوله تعالى : « رب المشرقين ورب المغربين » ، وهذا تعبير لم يرد إلا فى المكي : « رب المشرق والمغرب » (الشعراء / ٢٨ ، والمزمل / ٩) ، « رب المشارق » (الصافات / ٥) ، « رب المشارق والمغرب » (المعارج / ٤٠) .

- فى المرة الأخرى التى وردت فيها عبارة « مَرَج البحرين » (غير الآية ١٩ من « الرحمن ») كان ذلك فى وحى مكي : الفرقان / ٥٣ . بل إن الكلام عن البحرين (العذب والملح) لم يأت إلا فى السور المكية ، وذلك فى فاطر / ١٢ ، علاوة على « الفرقان » و « الرحمن » .

- وردت كلمة « برزخ » ثلاث مرات فى القرآن . وفيما عدا الآية ٢٠ من سورة « الرحمن » نجدها قد وردت فى سورتين مكيتين : المؤمنون / ١٠٠ ، والفرقان / ٥٣ .

- جاءت كلمة « اللؤلؤ » (معرفة بـ « أل ») ثلاث مرات أيضا فى القرآن : مرة فى « الرحمن » (الآية / ٢٢) ، والمرتان الأخريان فى سورتين مكيتين : الطور / ٢٤ ، والواقعة / ٢٣ .

- عبارة « الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » وردت بنصها (ما عدا كلمة « المنشآت ») مرة أخرى خارج سورة « الرحمن » (الآية / ٢٤) ، وكان ذلك فى سورة « الشورى » (الآية / ٣٢) ، وهى سورة مكية . كذلك جاءت كلمة « الجوار » مرة ثالثة فى الآية ١٦ من سورة « التكوير » المكية . كما ورد مفردا بنفس المعنى فى

الآية ١١ من « الحاقة » ، وهى سورة مكية أيضا .
- عبارة « يا معشر الجن (والإنس) » قد وردت فى غير الآية ٣٣ من
سورتنا فى موضعين آخرين من سورة « الأنعام » (الآيتان / ١٢٨ ، ١٣٠) ، وهى
سورة مكية .

- انشقاق السماء يوم القيامة (بلفظ « الانشقاق » أو ما فى معناه) لا يُذكر
إلا فى القرآن الذى نزل بمكة : الفرقان / ٢٥ ، والطور / ٩ ، والحاقة / ١٦ ،
والمزمل / ١٨ ، والمرسلات / ٩ ، والنبأ / ١٩ ، والانفطار / ١ ، والانشقاق / ١ .
وذلك غير الآية ٣٧ من سورة « الرحمن » .

- قوله تعالى فى الآية ٣٩ من سورتنا : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا
جان » يدور حول نفس الفكرة التى فى قوله تعالى : « ولا يُسأل عن ذنوبهم
المجرمون » ، وذلك فى الآية ٧٨ من سورة « القصص » ، وهى من سور المكي .

- اشتقاق « الإجمام » ، وقد وردت بضع عشرات من المرات فى القرآن
(٥٨ مرة بما فيها الآيتان ٤١ ، ٤٣ من « الرحمن ») ، لم يأت شئ منها فى المدنى
إلا فى موضعين : التوبة / ٦٦ ، والأنفال / ٨ .

- وبالنسبة لكلمة « النواصي » (فى الآية ٤١ من سورتنا) ، نرى أنها
تكررت بصيغة المفرد ثلاث مرات فى القرآن ، وكلها فى وحى مكى : هود / ٥٦ ،
والعلق / ١٥ ، ١٦ .

- الفعل « كذب / يُكذب » ، الذى ورد خارج سورة « الرحمن » ما يقارب
المائة والخمسين مرة ، لم يحدث أن أتى ، إلا فى الندرة ، فى نص مدنى .

- كلمة « حميم » ورد نكرها فى القرآن تسع عشرة مرة (إلى جانب الآية ٤٤

- من « الرحمن » (. وكلها ، ما عدا اثنتين منها على أكثر تقدير ، من المكي .
- تكررت عبارة « خاف مقام ربّه » (الموجودة في الآية ٤٦ من سورتنا) مرة أخرى في سورة « النازعات » (الآية / ٤٠) ، وهي سورة مكية .
 - وبالنسبة لتثنية الجئة في الآية ٤٦ فصاعدا من سورتنا ، لم يتكرر ذلك إلا في الوحي المكي : الكهف / ٣٢ ، ٣٣ ، وسبأ / ١٥ ، ١٦ (مرتين) .
 - وردت كلمة « طَرْف » (أى العين) خمس مرات خارج « الرحمن » ، وكلها في سور مكية : إبراهيم / ٤٣ ، والنمل / ٤٠ ، والصافات / ٤٨ ، وص / ٥٢ ، والشورى / ٤٥ . وبطبيعة الحال فإن تعبير « قاصرات الطرف » ، الذى ورد فى القرآن مرتين ، لم يأت إلا فى نص مكي .
 - وفى الآية / ٦٨ نجد الألفاظ الثلاثة التالية : « فاكهة ونخل ورمان » . وإليك بيان ورودها فى القرآن : الأولى وجمعها لم يردا ، خارج « الرحمن » ، إلا فى سور مكية . وقد تكررا ١٤ مرة . بل إن مادة « ف ك ه » كلها هى من المواد التى لا وجود لها خارج السور المكية .
 - وكذلك كلمات « النخلة » و « النخيل » و « النخل » لم ترد ، خارج سورة « الرحمن » ، إلا فى سور مكية ، اللهم حاشا كلمة « النخيل » فى سورة « البقرة » (فى الآية / ٢٦٦) . وقد وردت هذه الكلمات الثلاث فى عشرين موضعا من القرآن الكريم . كما وردت كلمة « رمان » ، خارج « الرحمن » ، مرتين آخرين فى سورة « الأنعام » (الآيتان / ٩٩ ، ١٤١) ، وهى من سور المكي .
 - كلمة « حُور » فى المرات الثلاث التى وردت فيها خارج سورة « الرحمن » (الآية / ٧٢) لم ترد إلا فى سور مكية : الدخان / ٥٤ ، والطور / ٢٠ ،

والواقعة / ٢٢ .

- مادة « و ك أ » ، التي تكررت مشتقاتها في أحد عشر موضعاً من القرآن (منها موضعان في سورة « الرحمن » : الآيتان / ٥٤ ، ٧٦) ، لم تأت في المدني إلا مرة واحدة ، وذلك في الآية ١٣ من « الإنسان » . ومع ذلك فقد تكون هذه الآية أيضاً مكية .

- ومن السمات الأسلوبية اللافتة للنظر أيضاً في السورة قصر آياتها ، ممّا الغلبة فيه للوحي المكي على الوحي المدني .

- كذلك ففي السورة عبارة تتردد منذ الآية السادسة عشرة بعد كل آية أو آيتين ، وهي قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . وهذه سمة لا توجد في القرآن المدني ، بخلاف المكي ، الذي يجد الإنسان فيه ذلك في سورة « الأعراف » (التي تردت فيها عدة مرات عبارة : « قال الملأ الذين كفروا / استكبروا ... ») ، و « الشعراء » (حيث يتردد في جزء كبير منها بعد كل عدة آيات قوله تعالى : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ») ، و « الصافات » (التي يتكرر فيها بضع مرات قوله تعالى : « إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين ») ، و « القمر » (حيث يقابل القارئ هاتين الآيتين عدة مرات : « فكيف كان عذابي ونذر ؟ * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ؟ ») ، والمرسلات (التي يتكرر فيها قوله سبحانه : « ويل يومئذ للمكذبين » بعد كل بضع آيات) .

بعد هذا كله نقول بضمير مطمئن إن سورة « الرحمن » هي من السور المكية . وقد كنت أولاً أحسبها مدنية لكثرة ما قرأت أنها كذلك . ثم تلت ذلك مرحلة كنت

فيها متشككا في تصنيفها بين المدني . ثم هأنذا بعد هذا التحليل الأسلوبى أجد أنها
مكية .

هوامش الفصل الأول

١- انظر القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٧ م / ١٧ / ١٥١ .

٢- السابق / ١٧ / ١٥٢

٣- لقد عدَّ بعض علماء القرآن « الرعد » من المدنى ، وفيها كلمة « الرحمن » دون « الرحيم » (وذلك فى الآية / ٣٠) ، لكنى أثبتُّ عن طريق تحليلها مضمونها وأسلوبها أنها مكية (انظر الفصل الأول من كتابى « سورة الرعد - دراسة أسلوبية وأدبية ») .

٤- وإن كانت الآية ١٨ من سورة « الحج » ، وفيها هذه الكلمة ، تُعدّ فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » مدنية . ولا أحسبها كذلك .

مسائل بلاغية

أول ما نشير إليه هنا هو تثنية ضمير المخاطب في قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ، الذى تكرر فى السورة إحدى وثلاثين مرة ، وكذلك فى قوله تعالى : « يُزَسَّلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَتْتَصِرَانِ » (١) . والمتبادر إلى الذهن أن الله سبحانه يخاطب الجن والإنس ، وإن كان استخدم لهما أحياناً ضمير الجمع أيضاً ، كما فى الآية التالية مثلاً : « يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان » (٢) . وقد ذكر بعض المفسرين تعليلاً آخر بالإضافة إلى هذا ، إذ ساق القرطبي ما قيل من أن « الخطاب للإنس على عادة العرب فى خطاب الواحد بلفظ التثنية حسبما تقدم من القول فى « ألقيا فى جهنم » وكذلك قوله : « قفا نبك ... » و « خليلي ، مَرَا بِي ... » (٣) ، وهو ما يبدو لى بعيداً ، إذ لا دليل على أن التثنية فى هذه الشواهد الثلاثة للمفرد . وما دام لا دليل على أن المقصود بالكلام فيها هو خلاف الظاهر فينبغى إجراؤه عليه . وفى الشاهد الأول ، وهو الآية القرآنية ، لا أدرى لم يتجاهلون أن الكلام قبلاً كان عن « السائق » و « الشهيد » اللذين يصاحبان كل نفس يوم القيامة واللذين أعتقد أن الخطاب فى ذلك الشاهد موجّه إليهما .

وفى الترجمة التفسيرية التى قام بها مالك غلام فريد يضيف المترجم إلى التوجيهين السابقين توجيهين آخرين ، إذ يقول إنه ربما كان المقصود بالخطاب فريقين من الناس : المؤمنون والكافرون ، أو الزعماء والأتباع ، أو الأغنياء والفقراء ، أو البيض والملونون ، أو ربّما كانت التثنية تأكيداً لعظمة الأمر الإلهى الذى تتضمنه

الآيات السابقة (٤) . وهذان التوجيهان هما أيضا يقتقران إلى الدليل ، ومن ثم لا إقناع فيهما . إنهما مجرد تخمين ، بل هما يتعاميان عن أن الكلام في السورة من أول الآية الرابعة والثلاثين موجّه إلى الإنس والجنّ ، حيث جاء بصريح اللفظ : « يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ * ... إلخ » . وهو ما جاء مثلا في قوله تعالى أيضا : « يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا . وغرّتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (٥) . ومعروف أن المكلفين من بين المخلوقات الإلهية هم الإنس والجنّ . وهذا أمر جاءت به الآيات القرآنية المختلفة (٦) . كما فات الكاتب أن الناس يمكن أن ينقسموا بإزاء الدعوة إلى أكثر من فريقين : فهناك مثلا المؤمنون والكافرون والمتشككون واللامبالون . وهناك الأغنياء والفقراء وأفراد الطبقة المتوسطة . ثم ما دخل البيض وغيرهم هنا ؟ وعلى كل حال ، فالبشر ليسوا بيضا وغير بيض فقط ، إذ من غير البيض الزوج والجنس الأصفر وذوو البشرة السمراء (مثلنا نحن العرب) والنحاسيو البشرة (الهنود الحمر) . ثم إن تقسيمه للشعوب على أساس اللون يوحى بأن البيض هم أساس البشر ، إذ هو يجعلها شعوبًا بيضاء وشعوبًا ملونة ، أي أن البيض هم وحدهم في جانب وسائر الشعوب في الجانب الآخر . وهذا انشغال شديد بالبيض ، الذين لم تكن لهم عند نزول القرآن هذه الأهمية التي لهم الآن بعد هبوبهم من تخلفهم في القرون الأخيرة واحتلالهم أوطان الشعوب الأخرى وسرقتهم خيراتها وتعاليمهم عليها . لا ، بل إنهم بعد الفتوحات الإسلامية قد دخلوا في سبات حضارى واران عليهم تخلف شديد في كل نواحي الحياة

تقريبًا لم يفيقوا منه كما قلنا إلا في القرون الأخيرة .

أما ريجي بلاشير ، المستشرق الفرنسي المعروف ومترجم القرآن إلى الفرنسية ، فيخالف من قال بأن التثنية في السورة للإنس والجنّ ويزعم أن الأصح القول بأنها للتكثير ، وأن ذلك شائع في الأسلوب العربي القديم وبخاصة في الشعر (٧) . والواقع أن الشعراء العرب القدماء لم يخاطبوا الاثنين فقط بل خاطبوا أيضا الفرد والجماعة . وبالنسبة لمعلقة امرئ القيس نفسها التي وردت في كلام القرطبي كما مرّ بنا قبل قليل ، والتي تبدأ بقوله : « قفا نبك » باستخدام ضمير المخاطب المثنى نجد الشاعر يقول في موضع آخر منها : « أصاح ، ترى برقًا أريك وميضه ... » . كذلك فإن طرفة ، صاحب القصيدة الأخرى التي أشار القرطبي إلى أول أبياتها أيضا ، وهو « خليلي ، مرًا بي على أمّ جُنْدَبِ » ، حيث يخاطب الشاعر الجاهلي صديقين له ، نرى أنه في بيت آخر من نفس القصيدة يقول :

وقوفًا بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسى وتجأد

ذاكرًا أصدقاء لا صديقًا واحدًا . ثم لماذا نقيس القرآن الكريم هنا على الشعر الجاهلي والموضوعان مختلفان والأسلوبان كذلك مختلفان ؟ وهذا بافتراض أن من سمات الأسلوب الشعري الجاهلي استخدام التثنية للدلالة على التكثير كما يقول بلاشير ، وهو ما وجدنا ما ينقضه في قصيدتين من أشهر قصائده (٨) .

وعلى أية حال فليست التثنية في السورة مقصورة على خطاب الإنس والجنّ فحسب ، بل يشمل كل شيء فيها تقريبًا : الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء والأرض ، والمشرقان ، والمغربان ، والفاكهة والنخيل ، والحب والرمان ، والمجرمون والذين يخافون مقام ربهم ، والبحران ، وشواظ النار والنحاس ، والجنّتان اللتان من

دونهما جنتان ، والعينان الجاريتان ، والعينان النضاختان ، والياقوت والمرجان ، والرُفرفر الخُضر والعبقري الحسان ، وجنهم والحميم الآنى . بل إن الله سبحانه ووجهه الأقدس قد وصف كل منهما بأنه ذو جلال وإكرام . وهاتان صفتان اثنتان . وبالمناسبة ، فهذه هي السورة الوحيدة التي ذُكر فيها مغربان اثنان .

ويعلق عبد الله يوسف على في ترجمته للقرآن على شيوع التثنية في السورة قائلاً إن « السورة عبارة عن سمفونية تثنوية تؤدي في نهاية المطاف إلى الوجدانية (متمثلة في الخالق الأوحد سبحانه وتعالى) . إن كل المخلوقات مكونة من زوجين ، والعدل هو التوفيق بين نقيضين للوحدة . إنه تسوية النزاع الذي لا ينتهي بين الحق والباطل » (٩) . ولا ننس أيضاً أن السورة تخاطب الإنس والجن ، أى مُثنى ، فناسب أن تقوم على التثنية في عمومها .

ومما يلفت النظر في هذه السورة أيضاً تكرر قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » إحدى وثلاثين مرة بدءاً من الآية الثالثة عشرة . وقد فصل الصاوى في حاشيته على تفسير الجلالين مواضع تكررهما على النحو التالي : « ثمانية منها عقب آيات تعداد النعم ، ثم سبعة عقب ذكر النار وشدائدها على عدّة أبوابها لأن التخلص منها نعمة ، ثم ثمانية عقب وصف الجنتين الأوليين كعدّة أبوابها ، ثم ثمانية عقب وصف الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين » (١٠) . وهذا من أسرار الأعداد في القرآن : فلجنة كما قال ثمانية أبواب ، ولذلك تكررت الآية عقب ذكر كل من الجنتين مرات بهذا العدد . وشكر النعم يؤدي إلى الجنة ، ولذلك تكررت الآية بعد هذه النعم نفس العدد من المرات . أما جهنم ، التي جاء في سورة « الحجر » (١١) أن لها سبعة أبواب ، فقد كرّرت الآية بعدها مراتٍ سبعة .

والتكرار هو إحدى وسائل التوكيد في كل اللغات والآداب . وهذا أمر متعارف . وقد ضرب بعض المفسرين أمثلة من الكلام العربي على هذا الأسلوب ، كالقرطبي ، الذي قال إن ذلك « كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن صزورة (أى لم تحج قبلاً) فحججت بك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلاً فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ » (١٢) . كما أورد الطبرسي عدة شواهد من الشعر العربي القديم ، منها أبيات مهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب التي كرر فيها قوله : « على أن ليس عدلاً من كليب إذا (فعل كذا وكذا) » خمس مرات ، وأبيات ليلي الأخيلية التي ترثى بها توبة بن الحمير وتكررت فيها عدة مرات هذه العبارة : « نغم الفتى يأتوب » وغير ذلك (١٣) .

هذا ، وقد سبق أن أشرت في الفصل الأول من هذه الدراسة إلى أن ذلك الأسلوب موجود في عدة سور من القرآن : « الشعراء » و « الصافات » و « القمر » و « الرسائل » .

لكل ما تقدم لا أجد معنى لقول بعض مترجمي القرآن إلى اللغات الأوربية من المستشرقين ، صراحةً أو تلميحاً ، إن هذا التكرار في سورة « الرحمن » تقليد للمزمور السادس والثلاثين بعد المائة . قال ذلك مراتشى Marracci وسيل Sale (١٤) وداود Dawood N. J. (١٥) ولودفيج أولمان Ludvig Ullmann (١٦) .

والمزمور المذكور مكون من ست وثلاثين آية كل منها تنتهي بعبارة « لأن إلى الأبد رحمته » (١٧) ، وذلك على النحو التالي : « احمدا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته * احمدا إله الآلهة لأن إلى الأبد رحمته * احمدا رب الأرباب لأن إلى

الأبد رحمته * الصانع العجائب العظام وحده لأن إلى الأبد رحمته * ... إلخ » .
والذين يزعمون أن سورة « الرحمن » تقليد لهذا المزمور يقصدون ، فيما هو واضح ،
أن تكرار آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » يناظر تكرار عبارة « لأن إلى الأبد
رحمته » .

وبنظرة سريعة إلى السورة والمزمور نجد أنه بينما لم تبدأ العبارة القرآنية في
التكرار إلا منذ الآية الثالثة عشرة فإن عبارة المزمور قد تكررت منذ البداية إلى الختام .
كذلك فإن قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » لم تختتم به السورة ، على عكس
العبارة المزمورية ، التي كانت آخر شيء في نص العهد القديم . فضلا عن هذا فإن
عبارة المزمور تشكل الجزء الأخير من كل آية فيه ، على حين أن العبارة القرآنية تشكل
آية مستقلة بحالها . ليس ذلك فقط ، بل إنها لم تتكرر دائما بعد كل آية ، إذ جاءت
أكثر من مرة بعد آيتين اثنتين . والعبارتان بعد مختلفتان : فواحدة خبرية ، والثانية
استفهامية . وتلك تتحدث عن رحمة الله الأبدية ، وهذه توبخ الكذابين من الإنس والجن
بنعم الله . وإذن فليس هناك من مشابهة بين السورة والمزمور إلا في التكرار بوجه
عام . ولو كان المزمور وحيا إلهيا لكانت المشابهة مفهومة . بيد أن وحيا إليها
لا يمكن ، فيما أعتقد ، أن يصف الله بـ « رب الأرباب » و « إله الآلهة » كما جاء
في الآيتين الثانية والثالثة من المزمور ، لأن هذا بمثابة اعتراف بتعدد الآلهة
والأرباب (١٨) .

ولا يمكن لمعتري يحترم نفسه وعقول مخاطبيه أن يقول إن الرسول قد قلّد
أسلوب المزمور . ذلك أنه قد نزلت سورة « الرحمن » بمكة كما انتهينا من تحليل
مضمونها وصياغتها ، أي قبل أن يتصل الرسول في المدينة باليهود أصحاب الكتاب

الذى ينتمى إليه ذلك المزمور . وحتى لو كانت السورة مدنية فكيف تأتى للرسول عليه السلام أن يطلع على هذا المزمور وهو مكتوب بلغة غير عربية ، ولم يكن النبي فوق ذلك يذهب إلى مدراس اليهود أو يجالسهم وهم يقرأون كتابهم ؟ ثم إن المزامير ليست قصصًا وحكايات حتى يقال إنها مما يشوق ويهم ، بل هى تأملات وأدعية وما أشبه مما لا يثير اهتمام غير المؤمنين بهذا الكتاب أو الدارسين المتخصصين فيه . ولو كانت « الرحمن » بعد كل ذلك تقليدا للمزمور المذكور أفكان اليهود سيسكتون فلا يشتمون عليه صلى الله عليه وسلم ؟

وثالثة النقاط التى أريد أن أدرسها هنا هى قابلية بعض آيات سورة « الرحمن » لأكثر من تفسير . والمعروف أن كثيرًا من العبارات القرآنية يمكن أن يفسر على أكثر من وجه . وذلك قد يكون راجعًا إلى الإيجاز الذى صيغت به العبارة أو إلى الطريقة التى رُكبت بها ألفاظها أو إلى استخدام الضمير بدلاً من الاسم الظاهر . لنأخذ مثلاً قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته » (١٩) . فهل المقصود أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته عليه السلام فى نزلته الثانية فى آخر الزمان ؟ أم هل المراد أنه قبل أن يموت هو سيؤمن بعيسى عليه السلام ؟ أم لا هذا ولا ذاك ، إنما المعنى أنه سيؤمن بمحمد عليه السلام عند معاينة الموت وتجلي الحقيقة له ؟ إن هذه كلها تفسيرات أوردها المفسرون ، والآية تقبلها . ومثال ثانٍ هو قوله تعالى : « الله الذى خلق السماوات بغير عمدٍ ترونها » (٢٠) ، الذى يقبل أن يكون معناه أنه سبحانه قد خلق السماوات بعمد غير مرئية ، أو قد يكون المعنى أنه خلقها بغير عمد على الإطلاق ، وهأتتم أولاء ترونها فعلاً كذلك .

وفى سورتنا من هذا الطراز قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » (٢١) الذى قيل فى تفسيره : « الشمس والقمر بحسبان ومنازل يُزسلان » ، و « يجريان بعدد وحساب » ، و « يُحسب بهما الدهر والزمان . لولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئا . لو كان الدهر ليلاً كله كيف يحسب أو نهاراً كله كيف يحسب ؟ » ، « وبحسبان ... كحسبان الرّحا (أى محوره) » (٢٢) ، و « بحسبان : تقدير آجالهما ، أى يجريان بأجال كأجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا . نظيره : كلٌّ يجرى لأجل مسمى » (٢٣) ، « وحجم الشمس ودرجة حرارتها وبعدها عنا وسيرها فى فلکها وكذلك حجم القمر وبعده ودورته ، كلها محسوبة حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما فى حياة الأرض ، وبالقياس إلى وضعهما فى الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى » (٢٤) ، والذى جاءت ترجمته عند رودويل مثلاً كالآتى : « The sun and the moon have each their times : الشمس والقمر لكل منهما مواعيده » (٢٥) . وعند محمد مارمادوك بكتل على النحو التالى : « The sun and the moon are made punctual : الشمس والقمر منضبطان فى مواعيدهما لا يتخلفان أبدا » (٢٦) ، وعند ن. ج. داوود هكذا : « The sun and the moon pursue their ordered course : الشمس والقمر يجريان فى مسارهما المقدر لهما » (٢٧) ، وعند لودفيج أولمان بالطريقة التالية : « Sonne und Mond bewegen sich nach bestimmter Regeln : الشمس والقمر يتحركان بقواعد منضبطة » (٢٨) . والآية تقبل كل هذه التفسيرات . ولا أستبعد أن تظهر تفسيرات أخرى حسبما يستجد من علوم ومعارف . والسبب هو إيجاز العبارة فى الآية . إن الأسلوب القرآنى هو أسلوب غنى مشحون ، ويظهر أثر ذلك فى تعدد التفاسير للآية أو الجملة الواحدة ، وهو ما يعبر عنه القول

الشائع : « القرآن حمّال أوجه » .

ومثال آخر نجده فى قوله عز شأنه : « والسماء رفعها ، ووضع الميزان » (٢٩) ، إذ « الميزان » هنا يمكن أن يكون هو الشريعة التى أرسلها الله للعباد لتكون لهم ميزانا يزنون به أعمالهم ويميزون الصواب من الخطأ . ويمكن أن يكون المقصود به هو العدل . وكذلك يمكن أن يكون المراد هو ميزان الأعمال يوم القيامة . كما يمكن أن يكون هو ميزان البيع والشراء . وقد يكون هو النظام الدقيق الذى رُتب عليه الكون . وكل هذا مما تقبله الآية ، وربما قبلت معه غيره أيضا . والسّر فى ذلك أنها لم تحدد ذلك الميزان ، بل تركته مطلقا . وأفضل شيء هو عدم تقييد الآية بمعنى أو أكثر من هذه المعانى دون باقىها . ذلك أنّ غنى الأسلوب القرآنى فى مثل هذه الحالة يتطلب ألا يضعه الإنسان فى قالب ضيق من المعانى .

وقد وصفت الآية الثانية والأربعون الجنتين اللتين أعدهما الله تعالى للذين يخافون مقام ربهم بأنهما « نواتا أفنان » . وقد يتسرع بعضنا قائلاً إن « الأفنان » ليست إلا جمعا لـ « فنن » ، فهذا هو ما يتبادر إلى الذهن حين تُذكر الجنان والبساتين ، ولكن إذا عرف الإنسان أن « أفنان » يمكن أيضا أن تكون جمع « فنّ » (إذ إن صيغة « أفعال » هى جمع لـ « فَعَلَ » ، مثلما هى جمع لـ « فَعَلَ » و « فَعَلَ » و « فَعَلَ ») جاز أيضا عنده أن يكون المعنى هو أن هاتين الجنتين نواتا فنون وألوان من المتع والنعم الإلهية ... وهكذا .

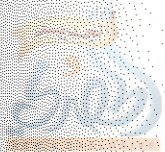
وفى سورتنا ، كما فى السور غير القصيرة فى القرآن ، نلاحظ تكرار بعض الكلمات والعبارات ، ممّا يشعر القارىء معه وكأنه يسمع فى جنباتها أصواتا وأصداء . لقد تكررت كلمة « الإنسان » مثلاً فى الآيتين الثالثة والرابعة عشرة .

وكذلك كلمة « الإنس » فى الآيات الثالثة والعشرين والسادسة والخمسين والرابعة والسبعين . كما تكررت عبارة « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » فى هاتين الآيتين الأخيرتين . ويمكن القارىء أن يتتبع تكرار كلمات « الميزان » و « جنتان » و « عينان » و « المردبان » و « فاكهة » و « نخل » و « حسان » و « الجرمون » ، وعبارة : « ... ربك ذو / ذى الجلال والإكرام » ، فضلاً عن قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

وإلى جانب تكرار الكلمة أو العبارة كما هى هناك تكرار محوّر . مثال ذلك « البحرين » (الآية / ١٩) و « البحر » (الآية / ٢٤) ، و « الإحسان » (الآية / ٦٠) و « حسان » (الآيتان / ٧٠ / ٧٦) .

هذا ، وقد لاحظت أن حرف السين يكثر تردده فى الآيات الأولى من السورة ابتداء من قوله تعالى : « خلق الإنسان » (الآية الثالثة) حتى الآية الرابعة عشرة ، وهى الآية التى يذكر فيها خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، ثم يكثر تردد حرف الجيم على مدى عدة آيات ابتداء من الآية التى تلى هذا والتى تتحدث عن خلق الجان من نار . وحرف السين هو أبرز حرف فى كلمة « الإنسان » ، على حين أن « الجيم » هى أبرز حروف كلمة « الجان » .

وفاصلة السورة تنتهى كلها تقريباً بالألف والنون ، ولا وجود لهذه الفاصلة فى القرآن (على قدر انتباهى) إلا فى آية واحدة أخرى هى الآية الواحدة والأربعون من سورة « يوسف » ، إذ تنتهى بكلمة « تستفتيان » . فهذه الفاصلة مما تتميز به سورة « الرحمن » عن سور القرآن جميعاً . وهى تناسب التثنية التى تسود السورة ، حيث إن صيغة التثنية فى الفعل المضارع المرفوع (إذ كلّ أفعال التثنية فى السورة



أفعال مضارعة مرفوعة) وكذلك فى الأسماء تنتهى بـ « ... ان » . وبالمناسبة ، فهذه هى الفواصل التى وردت بصيغة التثنية : تكذبان - يلتقيان - لا يبغيان - جتان - تجريان - زوجان - جتان - مدهامتان - نضاختان . وقد تكررت كلمة « تكذبان » فى الفاصلة أكثر من ثلاثين مرة .

والملاحظ أن الآيتين اللتين تتكلمان عن الله سبحانه قد انتهتا بفاصلة أخرى غير فاصلة الـ « ... ان » ، هى فاصلة الـ « ... ام » . وبهذا ميّزت السورة بين الله سبحانه الواحد الأحد ومخلوقاته التى صاغها على أساس الثنائية ، فجعلت فواصل الآيات التى تتحدث عن تلك المخلوقات تنتهى بفاصلة تدل على التثنية أو تشبهها ، بينما جعلت فاصلتى الآيتين اللتين تتحدثان عنه سبحانه شيئاً آخر .

وتشذُّ الآيتان الخامسة والسادسة النظر بتركيبهما الخاص (هكذا : « الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان ») ، حيث ذُكرت الشمس والقمر ، ثم النجم والشجر . وأغلب الظن أنّ « النجم » هو النبات الذى لا ساق له . وقد اخترت هذا التفسير لأنه يتحقق به مراعاة النظير والطباق ، فالنبات والشجر ينتميان إلى عالم واحد هو عالم الزرع ، مثلما تنتمى الشمس والقمر إلى عالم واحد هو عالم الأجرام السماوية . كما أن بين « النجم » و « الشجر » طباقاً مثلما بين « الشمس » و « القمر » . وما يلفت النظر أكثر من غيره فى تركيب الآيتين هو ورود كلمة « النجم » فى موضعها الذى أتت فيه ، إذ هى تبدو للوهلة الأولى وكأنها تنتمى إلى عالم الأجرام السماوية مثل الشمس والقمر ، ومن ثم لا يحسُّ القارئ غرابة فى ورودها بعدهما . لكنه عندما يرى كلمة « الشجر » التى أتت عقبها سرعان ما ينتبه إلى أنها تنتمى إلى عالم المزروعات . وفضلاً عن هذا فوزن لفظتى « النجم والشجر » هو نفسه وزن لفظتى « الشمس

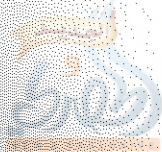
والقمر» على الترتيب ، وهو « فَعَلَ - فَعِلَ » .

وقد ذكرت الآية الأخيرة أن النجم والشجر يسجدان . ومن الممكن أن يكون لهما سجود بطريقة لا نعرفها ولكن يعلمها مولاها . وينبغي ألا نستغرب هذا ، فإن العلماء يقولون إن النباتات تحس وتستجيب للمؤثرات من حولها . ولا داعي لأن نجعل أنفسنا مقياساً لكل شيء فننفي أن يسجد النبات لأنه ليس له عقل كعقلنا ولا شعور من جنس شعورنا . إن الحياة بالنسبة لنا مفعمة بالأسرار والألغاز ، ومن ثم فلا بد من التواضع وعدم المسارعة إلى الإنكار . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون معنى « السجود » هو « الخضوع » ، أو تكون الكلمة استعارة . وهذا مما نفوض العلم فيه إلى الله . ومثله قوله تعالى : « أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ؟ * ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون » (٣٠) ، فمخلوقات الله كلها ساجدة لربها خاضعة له تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه لا يشذ عن ذلك منها شيء . حتى الإنسان الذى يعصى ربّه هو خاضع له وساجد رغم أنفه . فكل ما فيه يجرى كرها على مقتضى الإرادة الإلهية متمثلة فى القوانين المختلفة التى تحكم جسده ونفسه وعقله وروحه ، وتحكم كذلك العالم الذى يتعامل معه ويتأثر به ويؤثر فيه .

هوامش الفصل الثاني

- ١- الرحمن / ٣٥ .
- ٢- الرحمن / ٣٣ .
- ٣- الجامع لأحكام القرآن / ١٧ / ١٥٨ . والشاهدان الأخيران من معلقتي امرئ القيس وطرفة بن العبد على الترتيب .
- 4- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , The London Mosque , 1981 , p.1115, n. 2923
- ٥- الأنعام / ١٣٠ .
- ٦- كما في : الأعراف / ٣٨ ، ١٧٩ ، والأحقاف / ١٨ ، والذاريات / ٥٦ ، والجن / ٥ .
- 7- Regis Blachere , Le Coran , Paris , Librairie Orientale et Americaine , 1957 , p. 568 , n. 12 .
- ٨- وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا نقول إن امرأ القيس وطرفة وغيرهما من الشعراء القدماء كانوا يتحدثون في شعرهم عن مواقف مختلفة : مخاطبين أحيانا صديقاً واحداً لأنهم لم يكن معهم إلا واحد في ذلك الموقف ، وموجهين الكلام أحيانا أخرى إلى اثنين أو أكثر لأنهم كان معهم في موقف آخر صديقان أو أكثر من صديقين .
- 9- Abdullah Yusuf Ali , The Holy Quran , The Islamic University of Al-Imam Mohammad inb Sa'ud , p. 1473 , n. 5180
- ١٠- حاشية الصاري على تفسير الجلالين / مصطفى البابی الحلبي / القاهرة / ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١م / ٤ / ١٤٦ .
- ١١- الآية / ٤٤ .
- ١٢- تفسير القرطبي / ١٧ / ١٦٠ .
- ١٣- تفسير الطبرسي المسمى « مجمع البيان في تفسير القرآن » / دار مكتبة الحياة / بيروت / مجلد ٦ / ج ٢٧ / ٨٧ .

- 14- Sale's Koran , Frederick Warne , London , p.394, note C
- 15- N.J. Dawood , The Koran, Penguin Books , 1978 , p. 19 , n. 1 .
- 16- Ludwig Ullmann , Der Koran , Wilhelm Goldmann, Munchen, s. 433 , n. 5 .
- ١٧- نفس هذه العبارة اختُيِّمت بها أيضا الآيات الأربع الأولى من المزمور الثامن عشر بعد المائة .
- ١٨- انظر أيضا الآية الأولى من المزمور الثامن والثلاثين بعد المائة : « أحمدك من كل قلبي * قدام الآلهة أرثم لك » ، وفضلاً عن ذلك فإن عبارات مثل « من النهر يشرب في الطريق . لذلك يرفع الرأس » (مزمور / ١١٠ / ٧) ، و « فم يا رب إلى راحتك وتابوت عزك » (مزمور / ١٣٢ / ٨) لا يمكن أن تناسب جلال الله وما يجب له من التقديس والتعظيم المتناهيين . وهذا أقل ما يمكن أن يقال فيها .
- ١٩- النساء / ١٥٩ .
- ٢٠- الرعد / ٢ .
- ٢١- النساء / ١٥٩ .
- ٢٢- الآية / ٥ .
- ٢٢- تفسير الطبري / مجلد ١١ / ج ٢٧ / ٦٨ .
- ٢٣- تفسير القرطبي / ١٧ / ١٥٣ .
- ٢٤- سيد قطب / في ظلال القرآن / دار الشروق / ٦ / ٣٤٤٨ .
- 25- J. M. Rodwell , Dent & Dutton , London & New York , 1909 , p. 74 .
- 26- Muhammad Marmaduke Pickthal , The Glorious Koran , Muslim World League , Mecca Al-Mukarramah , 1977 , p. 590 .
- 27- N. J. Dawood , The Koran , p. 19 .
- وقريب من ذلك ترجمة كازيميرسكى ، التي تجرى على النحو التالي :
- " Le soleil et la lune parcourent la route tracee "
- (Le coran , Garnier - Flammarion , Paris , 1970 , p. 416) .
- 28- Ludwig Ullmann , s. 432 .
- ٢٩- الآية / ٧ .



٣٠- النحل / ٤٨ - ٤٩ .

ملاحظات فى تفسير السورة

فى قوله تعالى : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » ، أى من نوع معين من الطين ، نجد عجبًا ، إذ لم يكتشف العلم إلا مؤخرًا أن الإنسان مكون من نفس العناصر التى تتركب منها الأرض . ولأن هذا أمرٌ أصبح معروفًا فإنى لا أجد داعيًا إلى التوقف عنده .

وقد وصفت الآية السابعة عشرة الله سبحانه وتعالى بأنه « رب المشرقين ورب المغربين » . كما وُصِفَ سبحانه فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنه « رب المشرق والمغرب » (١) و « رب المشارق والمغارب » (٢) . فأما « رب المشرق والمغرب » فمعناه : رب مشرق كل نجم ومغربه فى كل يوم . والنجوم التى تشرق وتغرب لا حصر لها . ومثل ذلك فى المعنى : « رب المشارق والمغارب » . والألف واللام هنا وهناك للجنس . كل ما فى الأمر أنها فى الآية الأولى دخلت على المفرد ، وفى الثانية على الجمع . وأما « رب المشرقين ورب المغربين » فالمقصود فيما أفهم : رب مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما . ولكن بعض المفسرين يرون أن المشرقين والمغربين فى هذه الآية هما مشرقا الصيف والشتاء ومغربيهما (٣) . إلا أن السؤال هو : ولم الصيف والشتاء فقط دون الخريف والربيع ؟ ثم أليس هناك مشرق ومغرب خاصان بكل يوم ؟ وهناك تفسير آخر يقدمه مالك غلام فريد مفاده أن الكرة الأرضية تنقسم إلى نصف شمالى وآخر جنوبى ، ولكل نصف مشرقه ومغربه ، فهما إذن مشرقان ومغربان (٤) . بيد أنه ينبغى ألا يفوتنا أن حركة الكرة الأرضية لا تتم فجأة من نصفها الأول إلى

على نحو يجعل في كل لحظة مشرقاً ومغرباً في عدة بلاد معا .
 أما قوله عز من قائل : « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى
 آلاء ربكما تكذبان ؟ * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » (٥) فيبدو لأول وهلة غريباً ،
 لأن المظنون أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح ، أما البحر العذب
 فلا . وقد ذهب المفسرون في هذه الآيات مذاهب لم تصب الحقيقة ، فبعضهم قال إن
 المقصود أنهما يخرجان من مجموع مياههما لا أنهما يخرجان من كليهما . وبعضهم
 قال إن المقصود بحر السماء وبحر الأرض ، ويقصدون ببحر السماء ماء المطر ، وإن
 المعنى هو أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء
 السماء . وفريق ثالث ذكر أن البحرين هما بحر فارس وبحر الروم ، أي أنهما بحران
 ملحان كلاهما (٦) .

لكن ماذا نفعل أمام قوله تعالى في الآية الثانية عشرة من سورة « فاطر » :
 « وما يستوى البحرين : هذا عذب فُرَاتٌ سائغٌ شرابه ، وهذا ملحٌ أجاج . ومن كلِّ
 تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » ، وهو قاطع الدلالة في أن المقصود
 بالبحرين هما البحار والأنهار وليس بحر السماء وبحر الأرض (إن كانت اللغة تسمى
 ماء المطر بحرًا ، وهي لا تسميه كذلك) ، وأن الحلية تُستخرج من كلا البحرين لا من
 مجموع مياههما .

وقد وجدت سيد قطب ، وهو المفتر المعاصر ، يمز على هذه النقطة الحساسة
 مرور الكرام فلا يشير من قريب أو بعيد إلى مسألة استخراج الحلي من الأنهار .

وبالنسبة للترجمات القرآنية فإن رودويل يترجم هذه الآية هكذا : From both

أنه يرى أن الحلية تستخرج من مجموع مياه البحرين ، وإلا لقال :
 « ... From each » بدلاً من « From both » ، لأن الأولى معناها : « ومن كل ... » ،
 أما الثانية فتعني « منهما معاً ... » . وفي الترجمة الألمانية التي قام بها رودى باريت
 يترجم ذلك المستشرق الآية بقوله : « ... und (aus dem Salzmeer) geurnnt ihr ... »
 (shummuck ... um ihm euch anzulegen) مضيفاً من عنده بين قوسين عبارة
 « aus dem Salzmeer : من البحر الملح » ، أى « ومن البحر الملح تستخرجون حلية
 تلبسونها » ، فتصرف بذلك فى الآية لكى تتطابق مع ما يظنه من أن الأنهار لا
 تُستخرج منها أى حلى .

والواقع أن اللؤلؤ ، كما يستخرج من البحار ، يستخرج أيضاً من الأنهار ، إذ
 توجد اللآلئ فى المياه العذبة فى إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان
 مثلاً . ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس ، الذى
 يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة . ويوجد الياقوت أيضاً فى
 الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من بانداالاس فى بورما العليا ، وكذلك فى سيام
 وسيلان . وبالمثل يوجد حجر التوباز فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة من البرازيل
 والأورال وسيبيريا . والزيركون ، وهو من الأحجار الكريمة ويشبه الماس ، تُستخرج
 معظم أنواعه الكريمة من الرواسب النهرية (٧) .

أما « البرزخ » فى قوله تعالى : « بينهما برزخ لا يبغيان » ، وكذلك فى قوله
 جل جلاله : « وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً » (٨) ، فىرى د. موريس بوكاى ،
 الطبيب الفرنسى الذى أسلم منذ سنوات بعد دراسة القرآن الكريم فى لغته الأصلية ،

ويستطرد قائلاً إن البعض يرى أن القرآن قد أشار إلى هذه الظاهرة لعلاقتها بمصب نهرى دجلة والفرات ، اللذين يشكلان بالتقائهما بحراً (٩) .

والواقع أن البحرين هنا ، قياساً على آية سورة « الفرقان » ، هما البحر الملح والبحر العذب ، بينما دجلة والفرات كلاهما بحر عذب (أى نهر) . ثم إن النهر عند التقائه بالبحر يبغي ماؤه على ماء البحر فى البداية لينتهى الأمر ببغي ماء البحر على ماء النهر ، إذ يتحول الماء العذب إلى ماء ملح ويصبح جزءاً من البحر . فأين البرزخ إذن ؟ يبدو لى أن البرزخ المذكور هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والماء الملح كل هذه الدهور المتطاولة وسيبقيان إلى آخر الزمان ، لأن الأنهار تصب فى البحار ، ويقوم الهواء والشمس بتبخير ماء البحر ، الذى يتحول إلى سحب ثم يهطل مطراً على الجبال فينحدر منها إلى مجارى الأنهار ... وهكذا دواليك .

وقد فسر مالك غلام فريد « البحرين » فى الآيات بأنهما البحر الأحمر والبحر المتوسط ، أو المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى . وهو يرى أن الآية نبوءة بشق قناة السويس ، التى « التقى » عن طريقها البحرين الأحمر والمتوسط ، وشق قناة بنما ، التى « التقى » من خلالها المحيطان الأطلنطى والهادى (١٠) . إلا أنه بهذا قد تجاهل أن الإشارة إلى « البحرين » قد أتت فى موضعين آخرين فى القرآن على ما سبق بيانه ، وفى كل مرة كان المقصود بهما « البحر والنهر » . ثم ما دليله على أن المقصود بهما البحرين المتوسط والأحمر أو المحيطان الأطلنطى والهادى بالذات ؟ إن المحيط الهادى مثلا يلتقى هو والمحيط الهندى ، وهذا يلتقى بالمحيط الأطلنطى ، وهذا بالمحيط الهادى (ولكن ليس عن طريق قناة بنما ، بل عند الطرف الجنوبى لقارة أمريكا

لقارة أفريقيا ، كما يلتقى البحر الأسود والبحر المتوسط ... وهكذا . وهذه الالتقاءات ليست وليدة العصر الحديث بل قائمة منذ دهور متطاولة . فلماذا ترك هذا كله واختار قناة السويس وقناة بنما بالذات ؟ ثم أين « البرزخ » الذى ذكرته الآيات والذى يمنع البحرين من أن يبغيا ؟ إن « أل » فى « البحرين » هى للجنس لا للعهد . والمقصود « البحر والنهر » أو كما كان القدماء يقولون : « البحر الملح والبحر العذب » . ولو كانت الألف واللام للعهد ، فأين ما تعود عليه كلمة « البحران » ؟ إنه لا السياق اللفظى ولا السياق المعنوى يشير إلى بحرين معهودين . إن المقصود بذلك ، فيما نعتقد ، هو التقاء البحار والأنهار عند مصبات هذه الأخيرة . ورغم هذا الالتقاء فلا البحر يبغي على النهر ولا هذا يبغي على ذلك ، لأن مايقفده النهر فى البحر بالصب يعود فيسترده من السحب التى تتبخر مياهها من البحر وتنتقل إلى منبعه وتهطل مطرا هناك يمدّه بما كان قد فقده ... وهكذا . فالبرزخ الذى يمنعهما من البغي هو القوانين الإلهية التى تحكم عمليات البخر وتكوين السحب وهطول الأمطار وجرى الأنهار إلى مصباتها .

وتقول الآية السادسة والعشرون : « كل من عليها فان » . ويوجهها المفسرون على أساس أن الضمير فى « عليها » يعود على الأرض (١١) ، رغم أنه لم يسبق للأرض ذكر فى السياق . وأرى أن هذا تضيق للتعبير القرآنى الذى لم يحدد مرجع الضمير . وينبغى علينا نحن أيضا ألا نحدده بل نتركه مفتوحا ليشمل كل شئ فى الكون ، إذ إن الفناء ليس مكتوبا على البشر وحدهم ، بل هو يطول البشر والجن والحيوان والجماد . وحتى ولو كان المقصود بذلك البشر وحدهم فإن أقدام البشر قد

وعاشوا فوقها . وأرى أن المقصود هو أن كل من فى الدنيا (وليس على الأرض فقط) مكتوب عليه الهلاك ، ولا يبقى إلا وجه الله سبحانه . وحرف الجر « على » فى الآية قد جاء محل « فى » . وتبادل حروف الجر أماكنها جائز فى لغتنا .

والمقصود بـ « السؤال » فى قوله تعالى « يسأله (أى يسأل الله) من فى السماوات والأرض » (١٢) هو سؤال مخلوقاته حاجاتهم منه سبحانه : بعضهم بلسان الحال والمقال ، وبعضهم بلسان الحال فقط . ومن هؤلاء الكافرون به سبحانه ، إذ إنهم لا يطلبون منه ما يحتاجونه بألسنتهم . بيد أن ذلك لا يعنى أبدا أنهم مستغنون عنه ، وإلا فممن الذى خلقهم ويحييهم ويوفر لهم أسباب الحياة ؟ إنه الله عز وجل .

أما بقية الآية (ونصها « كل يوم هو فى شأن ») فإشارة إلى أن عناية الله وتدييره لأمر الكون كله (لا البشر وحدهم ، كما يفهم من كلام المفسرين) لا يتوقفان . ولو تخلت عناية الله عن المخلوقات لحظة لهلك كل شىء وأصبح عدما . وقد قال اليهود إنه سبحانه قد خلق الكون فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع ، وهو يوم السبت عندهم (١٣) . وهذا سخف لا تنتج إلا عقول اليهود الوثنية ، فالله سبحانه لا يمسه نصب ولا لغوب ، ولا تتوقف رعايته لمخلوقاته لحظة بصر .

وفى الآية الواحدة والثلاثين نقرأ قوله تعالى : « سافرغ لكم أيها الثقلان » . وليس معنى الفراغ هنا أنه سبحانه كان مشغولا قبلا . وإنما المقصود أن يوم الحساب آت ، وأن الله سائل كل فرد عما عمل فى دنياه ومثيب المطيع ومعاقب العاصى . وهذا مثل قولنا : « سأقطع رجل فلان من هنا » ، ولا قطع ولا خلافة ، بل المراد أنتى سأمنعه من الجىء إلى هنا ، وقولنا « حط فلان عصا التسيار » بمعنى « انتهى من

ويهدد الله عز وجل الكافرين والعصاة بأنهم لن يستطيعوا الإفلات من قبضته سبحانه . وكيف يمكنهم ذلك والسموات والأرض والكون كله في القبضة القدسية ؟ إن الجبار يتوعد عباده المتمردين أن يرسل عليهم النيران والنحاس فلا يستطيعون أن يدفعوا ذلك عن أنفسهم (١٤) .

وكلمة « شَوْاط » بجرسها وحده مخيفة . ومعناها اللهب أو الدخان . ويلاحظ أن « النحاس » المذكور في الآية غير محدد . وقد فسره البعض بأنه النحاس المذاب (١٥) ، وهذا لا يكون إلا عند بلوغ حرارته درجة رهيبة تجعل ألم الشخص الذى يُصَبُّ عليه لا يُتَّصَوَّر . وقد نطق بعضهم « شواظ » و « نحاس » بكسر الشين والنون على الترتيب . وهذه لغة ، كما أن ضم هذين الحرفين لغة أخرى .

وتتحدث الآلة السابعة والثلاثون عن بعض أحداث القيامة ، فتذكر انشقاق السماء وصيرورتها « ورده كالدهان » . وتقول الآية التاسعة والثلاثون إنه فى ذلك اليوم لا يسأل أحد من الإنس أو الجن عن ذنبه .

ولكن كيف تنشق السماء ؟ ذلك ما لا يمكن معرفته ، لأنه أمر لم يحدث بعد . وأرى أن يفوّض العلم بذلك إلى الله سبحانه . أمّا كيف ستكون السماء ورده فإن المفسرين قالوا ، ضمن ما قالوا ، إن ذلك لون الحمرة . وفى تفسير تشبيها بالدهان أوردوا آراء مختلفة ، فقيل إنها ستكون فى صفاء الدهن ، وقيل إنها ستكون لامعة مثله ، وقيل إنها ستسيل كما يسيل عند احتراقه ، وقيل غير ذلك (١٦) . وسبب هذه الاختلافات أن الآية تتحدث عن أمر من أمور الغيب وأنها اصطنعت فى ذلك أسلوباً شديداً الإيجاز فلم تذكر مثلاً وجه الشبه بين السماء فى ذلك اليوم وبين الدهان ، علاوة

الصرف » . وإنى لأرى أن معنى هذه الآيات لن يتضح إلا عند القيامة ورؤية الناس ما يحدث آنئذ بأعينهم .

وفى ذلك اليوم لن يُسأل أحد عن ذنبه ، لأن المجرمين سوف يُعزفون بعلامة تميزهم . ولعل سائلاً يسأل : ألم يأت فى آيات أخرى أن الناس جميعا سوف يحاسبون ويُسألون ؟ فكيف تقول الآية إن المجرمين لن يُسألوا عن ذنوبهم ؟ والجواب هو أن عدم السؤال خاص باليوم الذى تنشق فيه السماء وتصبح وردة كالدهان : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * ... * فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانٌ » ، وليس معناه أنه لن يكون هناك سؤال أبدا . إن القرآن لا يمكن أن يناقض بعضه بعضا . كل ما فى الأمر أن على من يتلوه أو يدرسه أن يفتح عينيه ويقرأ نصوصه جيدا . وسوف يجد أنه منسجم بعضه مع بعض .

وبعد أن يُعزف المجرمون بسيماهم سوف يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم (١٧) . أما كيف يؤخذ بالنواصي والأقدام فذلك ممّا لم تحدده الآية . ومع هذا فقد جاء مثلا فى تفسير النووى المسمى « مراح لبيد » أن نواصيهم وأقدامهم تُجمع من وراء ظهورهم فى سلسلة فيطرحون فى النار (١٨) . ولكن لا دليل على أن ذلك هو الذى سيكون . إنما هو اجتهاد من بعض المفسرين قد يصيب وقد يخطئ . والعلم عند الله سبحانه .

أما السيماء التى سيُعرف بها المجرمون فقد قيل إنها سواد الوجوه وازرقاق العيون (١٩) . وقد اعتمد المفسرون فى هذا على قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ... » (٢٠) وقوله عز شأنه : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » (٢١) . ولكن ينبغى أن تنتبه إلى أن الآية الأخيرة لم تحدد أن الزرقة ستكون فى العيون .

والاختناق . وهذا مجرد اجتهاد ، لأن القرآن الكريم قد سكت عن هذا التحديد . أما قول مالك غلام فريد إن الآية تشير إلى أمم الغرب الزرق العيون (٢٢) فهو كلام لا ينهض على أى أساس ، إذ الآية تتحدث عن اليوم الآخر لا عن الحياة الدنيا ، كما أن كثيرًا من الغربيين قد أسلموا ، فكيف يصنّفون رغم ذلك مع المجرمين ؟ وكثير من الأتراك هم أيضا زرق العيون ، وهم لم يكونوا مسلمين فقط بل تزعموا العالم الإسلامي وفتحوا باسم الإسلام أرضين واسعة وخدموه خدمات جُلَى . وهناك أيضا عدد كبير متناثر في مختلف الأمم الإسلامية عيونهم زرقاء ، فما القول فى ذلك ؟ إننا لا ندافع عن الغربيين ، فهم بوجه عام فى تعاملهم مع الإسلام والمسلمين كانوا ولا يزالون مجرمين عتاةً : كذبًا وغدرا وقسوة وكفرا وحقدا . لكن ذلك شيء ، والقول بأن الآية تشير إليهم شيء آخر . كتاب الله أسمى من أن يتناول بهذه الطريقة .

ويبدو قوله تعالى : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن » (٢٣) وكأنه هو نفسه ما جاء فى سورة « الصافات » : « إنها (أى شجرة الرُّقُوم) شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعتها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشؤنا من حميم * ثم إن مرجعهم لالى الجحيم » (٢٤) . وطواف المجرمين بين جهنم والحميم الآنى معناه ، فيما يبدو لى ، أنهم كلما وصل عذابهم إلى درجة لا يطيقونها أخذوا إلى الحميم الآنى ليغاثوا به فيحرق أجوافهم (٢٥) ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ثم يعودون إلى جهنم ... وهكذا دواليك .

وتتحدث الآيات التى تلى ذلك عن بعض متع الجنة التى أعدها الله لمن يخافون

الدعوى صحيحة فما العيب فى ذلك ؟ إن الآيات تتحدث عن عيون تجرى بالماء ، وفواكه ونخل ورمان ، وحوار قاصرات الطرف ، وفُرش بطائنها من إستبرق . فمن ذا الذى يكره شيئاً من هذا ؟ (٢٦) ويا ليت هؤلاء المستشرقين الذين يقولون ذلك كانوا من الزاهدين . إذن لفهمنا موقفهم . لكنهم هم وأممهم يتهافتون على الدنيا ولذائذها ويستعمرون البلاد ويقهرون العباد وينتبهون الطارف والتلاد ليستمتعوا بالدنيا وحدهم وتبقى الشعوب الأخرى فى فقرها وتخلفها وعيشتها الضنك . إن هذا الرياء يكشف عن طبيعة هؤلاء القوم . وذلك كله لو كانت دعواهم صحيحة ، فكيف وهى ليست كذلك ؟ إن الآيات ، كسائر النصوص القرآنية الكريمة التى تصف نعيم الجنة ، تلمس صنوف هذا النعيم لمسات سريعة هادئة لا تُسيل لعاباً ولا تحرك شهوة ، إذ وظيفتها التذكير، والتذكير فحسب ، بما أعده الله للمتقين فى الآخرة . وانظر إلى ما تقوله الآيات التى تتحدث عن الحور العين ، وهو الموضوع الذى يبدى فيه أعداء الإسلام ويعيدون . إن كل ما تقوله هو : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌ * * كأنهن الياقوت والمرجان » (٢٧) و « فيهن خيرات حسان * ... * حور مقصورات فى الخيام * ... * لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌ » (٢٨) . فهل فى هذا الوصف ما يحرك الغرائز ؟ كيف وكل ما وصفهن به أنهن حيئات ويشبهن الياقوت والمرجان وأنهن مقصورات فى الخيام ؟ إنه لا كلام عن الحواجب المقوسة أو الأهداب الوطفاء أو النظرات المنكسرة أو الخدود الأسيلة أو الصدور العارية المرمرية أو الأرداف المرتجة أو الأفخاذ اللفاء أو العُنُج والدلال والتكسر فى الحركات والأصوات أو التمدد على السرير بإغراء . لا شىء من هذا على الإطلاق . فإذا أضفنا إلى ذلك

وتحباب ومشاهدة لوجه الله الأقدس والحظوة برضوانه تعالى وسماع أصوات الملائكة وهي تسبح ربها وتقده ، عرفنا بأية أساليب منحطة يحارب أولئك الناس الإسلام . ويحاول القسيس رودويل أحد مترجمي القرآن الكريم إلى الإنجليزية أن يغمز النبي صلى الله عليه وسلم عند تعليقه على هذه الآيات ، إذ يقول : « من الملاحظ أن هذه الآيات التي تُعدُّ المؤمنين بالحوار العيني في الجنة تكاد لا توجد إلا في الشور التي تمت كتابتها في وقت لم يكن فيه لحمد (صلى الله عليه وسلم) إلا زوجة واحدة عمرها ستون عامًا ، وأنه في جميع السنوات العشر التالية للهجرة لم تُذكر النساء كجزء من ثواب المؤمنين إلا في موضعين اثنين ليس إلا ، وهما الآية ٢٣ من « البقرة » والآية ٦٠ من « النساء » (٢٩) . يريد القسيس أن يقول إن الجنة تعكس تطلع الرسول عليه السلام إلى النساء الشواب الجميلات أيام أن لم يكن عنده إلا خديجة العجوز . أما بعد انتقاله إلى المدينة وتزوجه من عائشة وحفصة وغيرهما فقد كَفَّ عن الحديث عن هذا اللون من ملذات الجنة ، وكأن القرآن هو من صنع الرسول عليه الصلاة والسلام يعكس حالته النفسية .

وقد فات رودويل أن الرسول ظل يحب خديجة حتى بعد موتها ويفضلها على نساته الأخريات جميعًا بما فيهن عائشة ، التي ظنت أن شبابها وجمالها يجعلان لها موقعًا في قلبه لا يضاهاى . ثم لو كان الرسول يتطلع في مكة إلى زوجة شابة جميلة ، فما الذى كان يمنعه من أن يتزوج على خديجة ، وهي التي طلبته للزواج ولم يطلبها هو ؟ كما فات المستشرق اللماز أن الكلام عن متع الجنة كلها (لا النساء وحدهن) قد اختفى أو كاد في الوحي المدنى . ذلك أن السور المكية كانت قد أرست أصول العقيدة

تحتاج إلى تشريعات وقوانين ، مما تكفلت به السور المدنية . هذا هو التفسير الصحيح لا ما قاله رودويل .

وإذا كان هذا الادعاء مفهوماً من المستشرقين فإن من العجيب أن يردد مثله عالم ينتمى إلى الإسلام ، هو الشيخ أبو بكر حمزة (٣٠) ، الذى قال فى ترجمته الفرنسية للقرآن ، تعليقا على الآية ٢٢ من سورة « الطور » ، إن متع الجنة كما فصلها القرآن ينبغى ألا تؤخذ على ظاهرها ، وإنه إذا كان القرآن قد تحدث عن الحور العين والفاكهة واللحم فقد كانت عينه على العرب الحسيين الأجلاف المتضورين جوعاً والذين كان شعراؤهم كثيرا ما يشتكون الجوع فى أشعارهم ونادراً مما كانوا يتحدثون عن العطش (٣١) .

وهذا الكلام يثير أكثر من سؤال .

١- هل الإسلام دين عربى جاء إلى العرب وحدهم حتى يعمل القرآن لهم كل هذا الحساب فيصور الجنة وفق مرادهم ؟ فكيف إذن دخلت كل هذه الأجناس الأخرى فيه ؟

٢- وهل العرب ينفردون من بين الأمم جميعا بحب الطعام الشهى والمرأة الجميلة ؟ إن هذه هى دعوى عامة المستشرقين ، الذين يريدون أن يقولوا إن أمهم أرقى من أمة العرب . فهل يوجد من بين هؤلاء المستشرقين وأمهم من ينفر من أكلة شهية أو يتقزز من امرأة جميلة ؟ إن السعار وراء هذه المتع لعلى أشده فى هذه المجتمعات . فلم الاستعلاء على المتع التى وعد الله بها عباده المتقين فى جنات عدن ؟ إننى أفهم أن يقول قائل إن هذه اللذات ، على حالتها التى هى عليها فى الدنيا ، لها

الجاذبية الأولى . ثم إنه إذا تُرك فترة طويلة دون تثليج يتعفن . فهذه ملاحظة لها
وجاهتها . ولكن من قال إن متع الجنة ستكون كمتع هذه الدنيا ؟ إنها ، كما يؤكد
القرآن والحديث ، سوف تكون متعا خالصة مصفاة . ونحن لا يمكننا أن نعرف طبيعة
هذه المتع ، لسبب بسيط هو أن القرآن الكريم يذكر أنه سوف « تُبَدَّل الأرض غير
الأرض والسموات » (٣٢) ، أى أن الكون سوف يتخذ وضعاً جديداً ، وسوف
يجرى على قوانين أخرى غير التي نعهدها الآن . أما أن نجزم بأن متع الجنة ستكون
متعا روحية فقط فهذا رجم بالغيب .

٣ - لا أظن الأستاذ المترجم ، وهو المسلم ، إلا موقناً بأن الذين آمنوا بالرسول
عليه السلام أفضل أخلاقاً وأزكى نفوساً ممن كفروا به . فهل يعنى توجيهه للآيات
التي تصف نعيم الجنة أن الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أكثر حسية وأسعى وراء
متع البطن والفرج من الكفار ؟

٤ - إن كلام الشيخ أبوبكر حمزة يوحى بأن القرآن قد اهتم بوصف طعام أهل
الجنة ولم يهتم بوصف مشاربها . لكن القرآن قد ذكر فى أكثر من موضع مشارب أهل
الجنة ، وبخاصة الخمر التى لا يُصدع شاربوها عنها ولا يُنزفون ، والماء المعين
الجارى . وسورة « الرحمن » قد ذكرت أربع عيون تتفجر بالماء . وما أكثر ما
تكررت عبارة « جنات تجرى من تحتها الأنهار » فى القرآن الكريم .

ورغم ذلك فلن تكون متع الجنة ، كما أسلفت القول ، مقصورة على هذه اللذائذ
وحدها ، فثمة رضوان الله والسلام الشامل الذى ستتقلب فيه نفوس الصالحين ، وثمة
وجه الله ذو الجلال والإكرام .

المسلمين كلما تحدثوا عن دينهم إلى الغربيين . وليس من المعقول أن ندعو الناس إلى دين الله بأسلوب يُشتمُّ منه رائحة الاعتذار عن الله . والله سبحانه غنى عن العالمين .
وبالنسبة لما جاء في سورتنا من أنه سيكون هناك للذين يخافون مقام ربهم جنتان ذواتا أفنان ، ومن دونهما جنتان أخريان مدهامتان (الآيات ٤٦ - ٧٦) ،
يطلع علينا ريجى بلاشير بنظرية عجيبة تقول إن ما جاء في وصف الجنتين الأخيرتين هو نفسه ما جاء في وصف الأوليين ، ومن ثم فالوصف الأخير هو مجرد صياغة ثانية للأول ، وبدلاً من أن يحل محله فإنه قد وُضع بعده . ثم يمضى قائلاً إنه إذا صح هذا الافتراض فإن الضمير في قوله : « ومن دونهما جنتان » لا يعود على الجنتين الأوليين ، اللتين لن يكون لهما وجود بعد حذف الوصف الأول والاكتفاء بالثاني ، بل يعود إلى « جهنم والحميم الآنى » المذكورين قبل ذلك في الآيتين ٤٣ - ٤٤ (٣٣) .

وإننا لتساءل : من أين ليلاشير أن الوصفين هما لنفس الجنتين ؟ إن ذلك رجم بالغيب في أمر لا يحتمل شيئاً من هذا الهزل ، إذ لماذا تعاد صياغة عدة آيات ؟ وكيف فات ذلك على المسلمين فأبقوا على النصين جميعاً بدلاً من حذف النص القديم والاكتفاء بصورته الجديدة ؟

وإن نظرة سريعة للوصفين لترينا أن الأمرين مختلفان : فالجنتان الأوليان قد وصفتا بأنهما « ذواتا أفنان » ، والأخيرتان بأنهما « مدهامتان » . والعينان اللتان في الأوليين قيل عنهما « تجريان » ، بينما قيل عن العينين الأخيرين إنهما « نضاختان » . وفي فواكه الأولى جاء قوله تعالى : « فيهما من كل فاكهة زوجان » ، وفي فواكه الثانية جاء : « فيهما فاكهة ونخل ورمان » . وسوف يكون المتقون في

« متكئين على رفر ف خضر وعبقرى حسان » ، علاوة على أنه لم يُقَل عن جئى الأخرين إنه « دان » على عكس الأوليين . وقد وصفت نساء الجنتين الأخيرتين بأنهن « حور مقصورات فى الخيام » ، وهو ما لم توصف به نساء الأوليين ، مثلما انفردت نساء هاتين بتشبيهن بالياقوت والمرجان . وليس ثمة شىء مشترك فى الوصفين إلا ما جاء فى وصف النسائين من أنهن « لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان » . ثم أين نجد صاحب الحال فى قوله تعالى : « متكئين على رفر ف خضر وعبقرى حسان » (٣٤) ، لو حذفنا وصف الجنتين الأوليين الذى يحاول بلاشير أن يوهم أنه هو نفسه الوصف الآخر الذى نظنه لجنتين أخريين مختلفتين ؟ إن صاحب هذه الحال والحال الأخرى الموجودة فى قوله تعالى : « متكئين على فزش بطائنها من إستبرق وجئى الجنتين دان » (٣٥) هو « من خاف مقام ربّه » (٣٦) الذى يقترح بلاشير أن يُحذف مع وصف الجنتين الأوليين ، زاعما أنه ليس إلا صورة أولى لنفس الوصف الثانى . أرايت كيف تتهافت نظرية بلاشير تحت أول ضربة من معول الحق ؟

هوامش الفصل الثالث

- ١- الشعراء / ٢٨ ، والمزمل / ٩ .
- ٢- المعارج / ٤٠ .
- ٣- انظر مثلاً « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير / عيسى البابى الحلبى / ٤ / ٢٧١ ، وتفسير النسفى / عيسى البابى الحلبى / ٤ / ٢٠٩ .
- 4- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , p. 55 , n. 2926 .
وكذلك يرى المترجم أن « المشرقين » فى الاصطلاح السياسى الحديث يمكن أن يكونا الشرق الأدنى والشرق الأقصى ، و « المغربين » أوروبا وأمريكا (نفس الموضوع السابق) . وفاته أن القرآن يقول : « المشرق والمغرب » ، أما الاصطلاح السياسى فيقول : « الشرق والغرب » . وهذا غير ذلك . كذلك فاته أن هناك « الشرق الأدنى والأوسط والأقصى » وليس « الأدنى والأقصى » فقط . ثم إن الغرب فيه غرب واحد فقط هو أوروبا وأمريكا معاً . ويقول الكاتب إن نور الإسلام بعد أن يعم الشرق سوف يسطع على الغرب . ونحن نرى أن الإسلام سيعاود فعلاً انتصاراته مرة أخرى ، إلا أن هذا لا يجعل ما قاله عن « المشرقين والمغربين » صحيحاً .
- ٥- الآيات ١٩ - ٢٢ . واللؤلؤ والمرجان : صغار اللؤلؤ وكباره ، عند كثير من المفسرين القدامى .
- ٦- انظر ذلك مثلاً فى تفسير الطبرى / مجلد ١١ / ج ٢٧ / ٧٥ ، و تفسير القرطبى / ١٧ / ١٦٣ .
- ٧- انظر التعليق العلمى على الآية ١٢ من سورة « فاطر » فى « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » .
- ٨- الفرقان / ٥٣ .
- ٩- انظر موريس بوكاى / القرآن والتوراة والانجيل ، العلم - دراسة الكتاب المقدس ، ص ١٠٠ .

- المعارف الحديثة / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨٢ / ٢٠٥ . وانظر كذلك « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » فى تعليقه فى الهامش على الآية ٥٣ من « الفرقان » .
- 10- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , p. 1156 , n. 2927 .
- ١١- انظر على سبيل المثال تفسير القرطبي / ١٧ / ١٦٤ ، وتفسير الطبرسي / مجلد ١٦ / ج ٢٧ / ٩١ .
- ١٢- الآية / ٢٩ .
- ١٣- تكوين / ٢ / ٢ - ٣ .
- ١٤- الآيات / ٣٣ - ٣٥ .
- ١٥- انظر مثلا تفسير القرطبي / ١٧ / ١٧٢ ، و « المنتخب فى تفسير القرآن » عند تفسير الآية . وبعضهم فسره بأنه الدخان .
- ١٦- انظر مثلا تفسير القرطبي / ١٧ / ١٧٣ .
- ١٧- نص الآيات هو : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يعزف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » . وهذا يشبه قوله تعالى (البقرة / ٢٧٣) : « تعرفهم (أى القراء) بسيماهم . لا يسألون الناس إلحافا » . ووجه الشبه أمران : عدم السؤال ، والمعرفة بالسيماء . والنصان مختلفان بعد ذلك فى كل شىء : فى البيئـة والزمان والموضوع ، وهو ما يجعل التشابه عجيبا .
- ١٨- انظر مثلا تفسير النووى المسمى « مراح لبيد » / عيسى البابى الحلبي / ٢ / ٣٤٣ .
- ١٩- انظر مثلا المرجع السابق / نفس الجزء والصفحة .
- ٢٠- آل عمران / ١٠٦ .
- ٢١- طه / ١٠٢ .
- 22- Malik Ghulam Farid , The Holy Qur'an , p. 680 , n. 1849 .
- ٢٣- ٤٣ / ١٠٦٧١

- ٢٥- انظر تفسير البيضاوى المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » / مكتبة الجمهورية المصرية / ٥٤٩ ، وانظر أيضا : George Sale , The Koran , p. 336 , note n & p. 395 , note m.
- ٢٦- وهذا لو كانت تلك اللذات بنفس الشكل الذى هى عليه فى الدنيا . ولكن العالم الآخر ، كما نعرف ، سوف يكون شيئا مختلفا ، وإن استُخدمت له نفس التسميات التى نستخدمها هنا فى الدنيا
- ٢٧- الآيات / ٥٦ - ٥٨ .
- ٢٨- الآيات / ٧٠ - ٧٤ .

29- J. M. Rodwell , The Koran , p. 76 , n. 2 .

٣٠- هو صاحب إحدى أشهر ترجمات القرآن إلى الفرنسية . وكان عند صدورها فى ١٩٧٢ م شيخ المعهد الإسلامى التابع لمسجد باريس . وهو جزائرى الأصل .

29- Le Cheikh Si Boubakeur Hamza , Le Coran , Fayard-Denoel , Paris , 1972 , Tome II , p. 1042 .

٣٢- إبراهيم / ٤٨ .

33- R. Blachere , Le Coran , pp. 569 - 576 , n. 46 .

٣٤- الآية / ٧٦ .

٣٥- الآية / ٥٤ .

٣٦- الآية / ٤٦ .